حياة غاندى وموته

قتل غاندى فى أواخر يناير من هذا العام . وقد كانت حياته ، كما كان كفاحه ، بل كما كان موته ، كلها حافلة بالمعنى والمغزى .

كان مغزى حياته أننا يجب أن نعرف كيف نستغنى لا كيف نقتنى .

وكان مغزى كفاحه أننا نستطيع أن نتغلب على خصومنا ونقهر الحيوان فى أعدائنا بانسانيتنا .

وكان مغزى قتله أن الهند تستغرب ، وتنفض عن نفسها ، النفس الهندية الناسكة ، لباس النسك الشرقى ، وتأخذ بأساليب الغرب فى تنازع البقاء .

ولد غاندى فى ١٨٦٩ . وتربى فى حضن أسرة لا تأكل اللحم . وفى الهند ملايين لا يأكلون اللحم بحكم الضرورة التى تعود بعد ذلك عقيدة دينية . لأن الأديان والعقائد يجب أن تتلاءم مع البيئة . وقد كانت البيئة الهندية فى آلاف السنين الماضية فقيرة ، فصار الفقر فضيلة ، حتى إن الناسك فى الهند يسمى إلى الآن « فقيراً » باستعمال هذه الكلمة العربية . ومن فقر الهند ظهرت طبقة المنبوذين أو الأنجاس التى أذلها الفقر والحرمان فانحدرت إلى الحضيض فى المكانة الاجتماعية . ثم جاءت العقيدة الدينية فجعلت الآلهة الهندوكية تقر هذه الطبقة على حضيضها .

وبعد أن تعلم غاندى فى المدارس الهندية رحل إلى انجلترا . وذلك كى يتعلم فى تلك المؤسسات الانجليزية التى يتخرج فيها المحامون ، وهى ليست مدارس بل نقابات قديمة . ومع أن الهند كان سكانها يترجحون بين ٣٠٠ر٠٠٠ و ٤ مليون حين رحل إلى انجلترا فانه لم تكن بها مدرسة للحقوق ، إذ كان يجب على كل هندى يرغب فى احتراف المحاماة أو القضاء أن يتعلم فى انجلترا . وهذا بعض أساليب الاستعمار .

ومع أن غاندى كتب كثيراً عن نفسه فانه أوجز فى الكلام عن إقامته فى انجلترا . ولكنا نعرف أنه أكل اللحم على سبيل التجربة . ولابد أن عقله

التجريبى قد حمله على تجارب واختبارات أخرى . ولكن المتأمل لحياته بعد ذلك يجد أنه عاد من انجلترا شرقيا هندوكيا لم تتغير شخصيته إلا قليلا ، قليلا جدا ؛ لأننا نجده بعد ذلك بأربعين سنة وهو يؤمن ويتكلم كالهندوكيين ويعبد آلهتهم ويشيد بفضائل الكتب الدينية الهندوكية .

وحاول غاندى أن يرتزق بالمحاماة فى الهند فلم يفلح . فرحل إلى أفريقيا الجنوبية حيث كانت الحكومات والشركات هناك قد استقدمت العمال من الهند كى يعملوا فى مناجم الذهب والألماس بأجور منخفضة لا يرضاها العمال البيض . وهناك فى أفريقيا الجنوبية اختمر فى رأس غاندى مذهبه السياسى وفلسفته الشخصية . وقد ثبت عليهما إلى يوم وفاته ، بل قتل لاستمساكه بهما .

والمذهب السياسى والفلسفة الشخصية بندغان عند غاندى . وخلاصتهما أننا يجب ألا نقاوم أعداءنا بالعنف والبطش، وأن الحياة كائنة ما كانت مقدسة ، فيجب ألا نقتل حيواناً إلا عند الضرورة . وقد حدث وهو فى أفريقيا الجنوبية أن وجد أحد أتباعه حية سامة تحت سريره فاحتاج إلى استشارته فى قتلها . وأشار غاندى بقتلها إذا لم يكن هناك مفر من القتل صيانة لحياة الانسان ؛ لأن حياة الانسان أغلى من حياة الحية . وهذا هو أيضاً مذهب البيرت شفيتزر . وإنما غاندى يستند إلى ديانته الهندوكية التى تقدس كل حى وتمنع القتل . وشفيتزر يستند إلى فلسفته . . . المسيحية الاغريقية الأوربية . . . ونحن جميعاً نرى أن تقديس الحياة إنما هو الاستنتاج المنطقى لنظرية التطور ، أى يجب أن نصون كل حى إلا إذا تعارضت الحياة الدنيا مع الحياة العليا ، الحية مع الانسان ، فعندئذ يجب أن نعدم الحياة الدنيا كى تبقى الحياة العليا .

وعاش غاندى طوال عمره وهو نباتى . وحاول فى البداية أن يستغنى عن اللبن ومشتقاته . ولكن قواه خارت ؛ لأن الفواكه والخضراوات لم تكفه ، فأضاف إليهما اللبن . ولم يكن يأكل الخبز . وقد ألف كتاباً عن الطعام كان ولا يزال أروج كتبه . وقد أثبت ببلوغه الثامنة والسبعين أننا نستطيع أن نعيش بأقل الطعام الذى يحوى القليل من البروتين . وكان غاندى منهمكا فى العمل بل أحياناً فى العمل الشاق . ولم يكن يبالى أن يسير نحو عشرين كيلومتراً . وكان يعمل فى الأصيل غازلا على مغزله فى الوقت الذى تقيل فيه فى مصر شباباً وشيوخاً .

ونحن نعيش كى نقتنى ، ولكن غاندى عاش وهو مستغن . وكان يتعلم بالتجربة كيف يستغنى . فانه وجد فى فترة من حياته أنه يحتاج إلى المسهلات يشربها فى الصباح كل يوم كى يحرك بها أمعاءه . ولكنه استغنى عنها بأن نقص مقادير وجباته وجعلها من الخضراوات والفواكه واللبن . ووجد أن أعباء الملابس التى نشتريها ونكدسها ونكاثر ونفاخر بها ليست ضرورية ، وأن الاستغناء عنها خير من اقتنائها ، فكان يقنع منها بشملة . وكان فى طعامه ولباسه لا يكلف الهند فى العام كله أكثر من ثلاثة أو أربعة جنيهات أى مقدار ما ينفقه رجل متوسط فى الأسبوع فى مصر أو أوربا .

ثم كان غاندى منتجاً . ولا نعنى هنا الانتاج فى السياسة ، هذا الانتاج الذى حقق الاستقلال للهند . وإنما نعنى الانتاج المادى الذى فهمه تولستوى حين شرع يصنع الأحذية للفلاحين بيديه . أو الذى فهمه جون رسكن الكاتب الفنان الانجليزى حين دعا إلى العمل اليدوى الذى يبعث فى نفوسنا الاحساس بالخدمة والتعاون . أو الذى يفهمه البيرت شفيتزر وهو دكتور فى الموسيقى ، ودكتور فى الطب ، ودكتور فى الغيبات حين ترك أوربا ورحل إلى أفريقيا كى يعالج الزنوج حيث هو الآن .

وفى غاندى شئ كثير من رسكين وتولستوى وشفيتزر . بل فيه شئ كثير من جان جاك روسو . فهو يحب الطبيعة ، ويؤمن بأن الخير أصيل فى الانسان ، وإنما يغيره المجتمع الفاسد إلى الشر كما هو مذهب روسو . وهو قد مارس الغزل على مغزله كما كان يمارس تولستوى صناعة الأحذية لنفسه وأسرته وعماله . وقد جعل من ممارسة الغزل شعيرة وطنية وفرضاً إنسانيا ، لأن السياسة والأخلاق يندغمان عنده . وقد ناضل الانجليز بالأسلوب نفسه الذى ناضل به شهواته وشهوات الهندوكيين .

وكان غاندى ، مثل تولستوى وروسو ورسكين ، يكره الحضارة الصناعية ، من حيث إنها تلغى الشخصية البشرية . ذلك لأن العامل يعمل وكأنه مسمار أو مفتاح فى الآلة يؤدى وظيفة غير شخصية ، وظيفة آلية . وهذا بخلاف الحال حين كان يعمل بيديه حيث تتسع له الفرصة كى يطبع شخصيته فيما يصنع وكى يحب عمله ؛ لأنه كان يحس بأنه ينتج قطعة فنية تحمل طابع تفكيره ومعالجة يديه . وقد حمل على الحضارة الأوربية كثيراً لهذا السبب ولغيره ؛ لأنها حضارة

الاقتناء والتكاثر والمباراة وتنازع البقاء . وعارضه تاجور ووقف موقف الدفاع عن الحضارة الأوربية ، ورأى فى موقف غاندى دعوة إلى الانفصال بين الشرق والغرب.

والمتأمل لحياة غاندى لا يتمالك من الاحساس بأن فلسفته الشخصية هى ثمرة البيئة الهندية : فلسفة القناعة التى تصل إلى حد الاستغناء . ومنشأ هذه القناعة هو الفقر المحتوم . ولكنه هو تسامى بهذه القناعة حتى جعلها أسلوباً جميلا بل أنيقاً للعيش . وإذا كان مقياس الفضيلة كما وضعه برنارد شو صادقاً فان غاندى يجب أن يعتبر أفضل إنسان على هذا الكوكب . ذلك أن برنارد شو يعتقد أن الرجل الفاضل هو ذلك الذى يعطى الدنيا أكثر مما يأخذ منها . وقد أعطى غاندى الهند روحيا ما لا يقدر بأية مادة ، وأعطى الدنيا مادياً ما لا يقاس إلى جنب ما أخذه منها ؛ لأن هذا الذى أخذه هو قليل من اللبن والخضراوات والفواكه .

وعندى أن مغزى الحياة الشخصية التى عاشها غاندى هى أننا نستطيع أن نعيش بالاستغناء ونرتاح بذلك كثيراً أى أكثر مما نعيش بالاقتناء ، هذا الاقتناء الذى يعد فى كثير منا نيوروزاً يؤدى إلى إنفاق مجهودنا النفسى والذهنى والعضلى فى الجمع مع ما يجلبه هذا الجمع من الجهد وما يبعثه من الحسد والحقد والكراهة ، ثم الحرمان من الاستمتاع بالحب والثقافة والفنون .

وقد نقع فى التباس حين نتأمل حياة غاندى . ذلك أننا نتهمه بأنه رجعى لأنه كان يكره الآلات ويدعو إلى الصناعات اليدوية . وهو بلا شك رجعى هنا إذا توسعنا فى النظر إلى الآفاق البشرية فى الحضارة القادمة . لأن الآلات هى الطريق إلى تحرير الانسان من الكدّ . والمتأمل لحياة الفلاح المصرى عندنا ويقارنها بحياة الفلاح الأمريكى يجد أن الأول يعمل بيديه نحو ١٤ ساعة فى اليوم فى حين يعمل الثانى بالآلات ثمانى ساعات قدر ما يعمله الأول عشرين ضعفاً .

ولكن إذا نظرنا النظرة المحدودة بحدود الهند فى الأربعين أو الثلاثين سنة الماضية فأننا نجد أن غاندى كان صادقاً بصيراً حين دعا إلى الصناعات اليدوية . صناعات الغزل والنسج .

ثم هو فى نظرته للديانة الهندوكية لم يكن رجعيا أو تقليديا ؛ لأنه كثيراً ما وقف موقف المعارض بل أحياناً موقف الثائر على التقاليد . وقد وجد من

البراهمة ، كهنة الهندوكيين ، كفاحاً بل عداء . فانه دعا إلى المساواة بين الهندوكيين والمنبوذين . كما أنه لم يبال أن يقتل بيديه البقرة المقدسة التى كانت تترك حتى تموت ميتتها الطبيعية . ولم يكن يبالى أن يقول فى وجه البراهمة المعتزين بآلهتهم وعقائدهم إن المسيحية والاسلام يحويان من الفضائل ما لا يقل عما تحويه الهندوكية

وقد وقعت الجناية عليه وقتل ، لأن قاتله كان يتهمه بحب المسلمين ومسالمتهم .

وحسبنا هذا من حياة غاندى مغزى للشخصية والأخلاق .

وأما المعزى من كفاحه السياسى فيندغم ، كما قلنا ، فى المغزى من حياته وسيرته وشخصيته . فقد كافح الاستعمار البريطانى بأخلاقه وفلسفته ، أخلاق النسك وفلسفة الاستغناء . وقد بدأ تجاربه فى هذا الكفاح وهو فى أفريقيا الجنوبية . فقد أخذ من ثورو الكاتب الأمريكى الذى كان يدعو إلى الطبيعة وإلى الاستغناء عبارة « العصيان المدنى » .

وكان ما يقصد إليه ثورو من هذه العبارة أننا نستطيع أن نعيش فى هذا المجتمع الحافل بالتكاليف المرهقة ، العيش الذى نختاره ، بأن نعصى هذا المجتمع ولا ننزل على القيم والأوزان التى يفرضها علينا . وقد عمل ثورو بما دعا إليه . فترك المدينة ورحل إلى شاطئ بحيرة ، وصنع لنفسه كوخاً من الخشب وصار يصيد السمك ويخيط ملابسه بنفسه ويأكل البقول . ولم تكن تزيد نفقاته فى الشهر على بضعة قروش . ويبدو أن غاندى تأثر كثيراً بحياة ثورو ومؤلفاته سواء فى الأخلاق والسياسة .

على أن عبارة ثورو « العصيان المدنى » قد احتلت مكاناً كبيراً فى قلب غاندى من حيث الخطط السياسية التى اتبعها فى مكافحة الاستعمار البريطانى للهند . لأن معناها قد انتهى عمليا إلى عدم التعاون وشل الادارة الانجليزية بهذا العصيان .

ونقل غاندى جميع تجاربه التى تحقق من أثرها فى أفريقيا الجنوبية إلى الهند . وكان عقب عودته إلى الهند فى أواخر الحرب الكبرى الأولى قد استقر فى ذهنه أن « العصيان المدنى » و « عدم التعاون » و « المكافحة السلبية »

كلها حسنة فى الابتداء للتنبيه ولكنها غير ناجعة ؛ إذ يجب أن تكون المكافحة إيجابية .

وحين نقول « المكافحة الايجابية » للسلطة الغاصبة تثب إلى الذهن أنواع المقاومة العنيفة الدموية . ولكن غاندى بمزاجه الهندوكى وتعاليمه الدينية وبيئة الهند الفقيرة ثم بما لقنه من تولستوى وثورو وغيرهما من دعاة الحياة الساذجة الرحيمة ، كان أبعد الزعماء عن العنف والبطش . وانتهى به التفكير هنا إلى أن خير أنواع المقاومة للانجليز هو المقاومة الاقتصادية . ورأى فى هذه المقاومة أنه يصيد عصفورين بحجر : الأول هو حرمان الانجليز من المنافع الاقتصادية فى الهند . والثانى هو رفع المستوى الاقتصادى للايين الشعب الهندى .

وهبط هنا على المغزل والمنسج ، وحمل الهنود على مقاطعة البضائع الانجليزية ومعظمها من الأقمشة . وكان إحراق هذه الاقمشة فى شوارع المدن الكبرى فيما بين ١٩٢٠ و ١٩٣٠ عاما . وصارت السيدات يلبسن القماش الهندى الخشن الذى غزلته ونسجته أيدى الهنود ويؤثرنه على الحرير المجلوب من لنكشير .

ولكن المقاطعة لم تحمل الانجليز على الجلاء ، ولكنها زعزعتهم كما نبهت الهنود إلى الأسس الاقتصادية للاستعمار . حتى أصبح هم الانجليز مكافحة الصناعة فى الهند . ولكن الموجة الطاغية للحركة الوطنية اكتسحت كل شئ أمامها ، ونجحت الصناعات الكبرى والصغرى أى صناعات الآلات وصناعات الأيدى . حتى إن أكبر المصانع للفولاذ فى العالم كله الآن لا توجد فى الولايات المتحدة أو روسيا أو انجلترا وإنما توجد فى الهند . . .

وقد كان العالم يراقب غاندى فى هذا الكفاح البار لرفع المستوى الاقتصادى فى الهند ويجد فيه قديساً يحاول أن يطعم الجائعين ويكسو العراة . ولكن الانجليز كانوا يصفونه بأنه « ثعلب » ماكر . وكانوا محقين فى ذلك ؛ لأن هذه الخطة البارة التى تشترشد بالصلاح والاخاء والانسانية هى التى قضت على استعمارهم .

ونحن فى مصر نعرف أن فلاحنا فقير ، وأن دخله لا يبلغ أحياناً سبعة أو ثمانية جنيهات ، وإن كان فى بعض سنى الرواج قد يبلغ عشرة جنيهات أو أكثر . كما نعرف أن فلاحنا حين يقتنى بقرة أو جاموسة حلوباً يرتفع مستواه

الصحى إلى درجة لا تبلغها أسر العمال فى المدن . ولكن فقر الهنود قد تدرّك بالاستعمار البريطانى إلى حضيض لم نبلغ نحن انحطاطه فى مصر . مع أن الأسلوب الذى اتبع فى مصر والهند كان واحداً . وكان اللورد كرومر الذى عاش فى الهند ودرس هذا الأسلوب هو الذى تولى إنفاذه فى مصر ، وهو قتل الصناعات الوطنية وإحالة كل من مصر أو الهند إلى عزبة كبيرة للقطن يزرع ثم يرسل مادة خامة إلى مصانع انجلترا كى يغزل وينسج .

ولكن فلاحنا مع فقره وبؤسه يعد متيسراً بالمقارنة إلى الفلاح الهندى الذى لايزيد دخله السنوى على جنيهين اثنين . وهناك فى الهند نحو ثلاثمائة مليون إنسان تعيش أسرهم على هذا الدخل . أى أن متوسط الفرد فى الأسرة لايبلغ ٣٠ أو ٥٠ قرشاً فى العام . وكان غاندى فى دعوته إلى المغزل والمنسج إنما يكافح هذا الفقر .

وفى ١٩٣٠ ألفنا فى القاهرة جمعية «المصرى للمصرى» كانت غايتها بعث الاقتصاد المصرى . وحاولنا أن نستنير بحركة غاندى . فأرسلت إليه أطلب المطبوعات الخاصة بحركة الغزل والنسج مع أمثلة من المغازل فأرسلها كلها إلىّ . ولكن بعد أن درسناها وجدنا أنها لا تزيد الفلاح المصرى شيئاً يؤبه به ؛ لأن مستواه أعلى كثيراً من مستوى الفلاح الهندى .

وكان الاتحاد بين المسلمين والهندوكيين حجر العقد فى وطنية غاندى . وقد قتل من أجل استمساكه بهذا الاتحاد . وواضح أنه لم يكن مخادعاً فيه يبغى الوحدة السياسية منه فقط . لأن كل تعاليمه السابقة تتجه نحو الوحدة البشرية . وكثيراً ما كان يشيد بحياة نبى الاسلام والخلفاء الراشدين . ولما انقسمت الهند إلى هندوستان وباكستان مرض غاندى ووضحت عليه الشيخوخة التى لم يكن يعرفها قبل الانقسام . ولما فشا التدمير لمساجد المسلمين أعلن عن صيامه حتى ترد هذه المساجد إلى أصحابها .

وشئ فى غاندى يشبه المكر الذى اتهمه به الانجليز . وهو الذكاء الذى كان يبديه فى اختيار الفرص لتنبيه الوجدان الهندى . ففى ١٩٣٠ حين كانت الأزمة العالمية على أفتكها بالفقراء والمتوسطين عمد إلى إثارة الهنود لالغاء احتكار الملح . والملح يستهلك بوفرة فى الهند ؛ لأن الكثرة الساحقة تتألف من الملايين التى لا تحلم بالأدام . ولذلك لا يساغ الخبز القفار إلا مع الملح . واحتكرته

حكومة الهند لهذا السبب . وسار غاندى بالألوف إلى شاطئ البحر لجمع الملح من الملاحات . وأعملت شرطة البوليس وجنود الجيش البنادق والسياط ، فأخفقت الحركة . أخفقت فى إلغاء الاحتكار ، ولكنها بالطبع نجحت فى تنبيه الشعب إلى معنى الاحتكار البريطانى للملح .

على أن قتل غاندى يحمل مغزى كبيراً لا يقل فى خطورته عن مغزى حياته . وهو أن الهند تنتقل من الشرق إلى الغرب ، ومن استغلال الضعف إلى استغلال القوة ، ومن الروحية والقداسة الدينية إلى المادية والسياسة العصرية .

وليس شك أن فى هذا الانتقال ما يؤسف عليه كثيراً . فان الهند عاشت فى تاريخها الماضى وهو يزيد على ثلاثة آلاف سنة رهى لا تعرف الرق ؛ إذ لم يبع قط عبد أو أمة على الأرض الهندية . وهذه ميزة ترفع الحضارة الهندية إلى السحاب بالمقارنة إلى أية حضارة أخرى رضيت بالنخاسة . ولم يكن السبب لهذا الارتفاع سوى هذه « الروحية » الهندية التى تحترم الحياة كائنة ما كانت (أذكر الحية فى أفريقيا الجنوبية) وحياة الانسان أكثر من حياة أى مخلوق آخر.

احترام الحياة هو الأصل الذى تنبنى عليه فلسفة غاندى وسياسته وشخصيته ، وهو الأصل فى الفلسفة الهندوكية . وقد نجحت هذه الفلسفة فى تحريك الهند وبعث وجدانها الوطنى . ولكن يبدو من هذه الجريمة الأخيرة أنها قد استنفدت أغراضها فى الميدان السياسى ، وأن الهند قد استغربت وشرعت تأخذ بأساليب الكفاح الأوربى وتهدف إلى غاياته .

وهنا المغزى فى هذه الجريمة التى ما كانت لتقع أو يستطيع أن يتخيلها هندوكى قبل عشرين أو ثلاثين سنة ؛ لأن الاجتراء على مثل هذا القديس الناسك بالقتل كان يتجاوز حدود الخيال . ولكن الهند قد انتقلت من غاندى الذى يكره العنف ويقرأ تولستوى ويحب المسيح ويعيش على أسلوب ثورو ويصلى للآلهة الهندوكية ويدعو إلى المغزل اليدوى ، إلى نهرو الاشتراكى الملحد الذى يفهم التفسير الاقتصادى للتاريخ ، ويدعو إلى صناعات الآلات الكبيرة والانتاج بالملايين وإلى الثراء والرفاهية . أجل ! وإلى تنازع البقاء . . .

سلامة موسى